تصميم الغلاف : احمد فاروق
رواية
عاشق مغيبة
محمود عادل
عصير الكتب

محمود عادل

رواية

عاشت مُغيبة

جميع الحقوق محفوظة © عصير الكتب للنشر الإلكتروني

http://book-juice.com

رواية

عاشت مغيبة

المؤلف : محمود عادل

تصميم غلاف: أحمد فاروق

نشر في :يوليو 2018

تنسيق داخلى : عصير الكتب للنشر الالكتروني

إلى غدًا لا يشبه الغد،

إلى يومًا لن يكون كتلك الأيام،

إلى واقع آخر وإلى حياة ستكون صالحة للحياة بها.

أنتظِرُكْ...

سلامًا على المتفائلين وفي محاجر عيونهم دمعات مخبوءة، أولئك الذين قرروا المُضي قدمًا نحو العمر – ولم تحالفهم الخطوات

(1)

مازلت أسمع صوت آلة الخياطة خاصتها يتردد في أذني وهيا تعمل حتى ساعة متأخرة من الليل، يمنعني الأرق من النوم، ويجبرها السعي وراء لقمة العيش على السهر.

بعض الأيام عندما كانت جهاد تأتي إليّ لتشرب قهوة العصر كنت أرى التعب بادٍ في عينيها اللتين لم تفارقهما الابتسامة حتى في أصعب الأوقات، كان زوجها قد ترك عمله قسرًا، وقد عجز عن إيجاد عمل آخر حسب ما كانت تقوله جهاد، لكن الحقيقة كانت غير ذلك فيوسف صاحب الشهادات الجامعية كان يرفض العمل في وظيفة لا تَرقى لمستوى شهاداته، فهو لم يدرس الجامعة ولم يتخرج بتفوق حتى يعمل عملًا يقلل من شأنه حسب تفكيره.

إنه أحد أولئك الذين تخرجوا من الجامعة جُهلاء لا يعرفون سوى الحروف والأرقام التي تعلموها في الصف الأول من المرحلة الابتدائية، لكن جهاد كانت امرأة أصيلة وعاقلة؛ لذلك ارتضت لنفسها أن تعمل بأعمال الخياطة بعدما وخط الشيب رأسها وخف بصرها، هي لم تكن عجوزًا، لكنها كانت كبيرة بما يكفي لتكون أعمال الخياطة عبئًا عليها.

ورغم ذلك كانت تعمل لا تَسمع منها شكوى ولا تذمُر، كما لو أنها ليست مُجبرة على القيام بهذا العمل، تراها عاكفة على آله الخياطة تلك هيا ذات الابتسامة التي تراها على شفتيها وهي تطبخ طعامه أو تغسل ثيابه، لقد كانت جهاد امرأة بحق.. امرأة بكل ما تحمله الكلمة من معنى.. نظيفة.. لطيفة.. مرتبة.. أنيقة.. رقيقة.. هادئة.. صبورة.. حنونة.. عطوفة.. محبة لزوجها.. ولا يمكن لشيء في العالم كله أن يشغلها عن العناية ببيتها، عِلاوًة على جمالها الأخاذ، رغم أن الجمال ليس إلا قطرة في بحر أنوثتها الطاغية.

ولكن كما يُقال: (لا تُعدم الحسناء ذمًا!)

فمهما بلغت محاسن الإنسان هيهات له الكمال، فالنقص صفة إنسانية ولكل كامل نواقصه والكمال لله وحده.

فهذه المرأة رغم محامدها إلاإنها لم تسلم من العيوب وأكبر ما يمكن أن تعاب به امرأة هو أن تعجز عن الإنجاب.. وكما أن لكل منا نصيبه من كل شيء مهما كان خيرًا كان أم شر، فهذه المسكينة كان لها نصيب في الحرمان من الإنجاب.

ورغم سعيها الحثيث الدءوب للبحث عن علاج إلا أن مشيئة الله جَرت على أن لا تحمل، ولما عجزت عن معرفة سبب عدم إنجابها رغم أن الأطباء أكدوا لها قابليتها للحمل استسلمت لقضاء الله وطلبت من زوجها أن يتزوج بأخرى، لكنه رفض.

(2)

مرت أعوام.. تغير النظام الشمسي.. وتغيرت معالم الكرة الأرضية.. فكيف لا يتغير يوسف! هي أيضًا تغيرت، ولكن ما بيدها حيلة، فالوقت هو أقوى الكائنات تفاعلًا مع الإنسان، لا أدري أي قوة تلك التي يمتلكها لتغير تضاريس أجسادنا!وهل هو يا ترى فاقد للبصر حتى يُفقد الألوان رونقها ويُحِيلُها كلها إلى البياض الناصع، ذلك اللون الوحيد الذي يدركه كيانُه! أيًا ما يكن!

فرغم كل تلك التغيرات إلا أن حبها لزوجها يوسف ظل كما هو، بذات الشغف والخجل الذي تشعر به فتاة صغيرة يدق قلبها للمرة الأولى، كان بالنسبة لها مثالًا لتلك العَظِمة الإنسانية التي لا تزيدها النواقص إلا بهاء.

لقد كان يوسف محًبا لجهاد، يعاملها بلطف واحترام، لكن الحال لا يبقي على حاله، وبعض الناس ما هم بالنسبة لغيرهم إلا كالشيء الجديد، يبدو جميلًا في البداية ولكنه لن يلبث أن يفقد جماله مع مرور الأيام.

ربما لذلك لم يعد يوسف ذاك الرجل الذي أغرمت به جهاد منذ سنوات، وربما أيسه من أن تنجب له جهاد طفلًا بَدل ما في نفسه نحوها، فأصبح قاسٍ عليها، لم يكن لجهادنصيب من النسيان حتى يضطر زوجها إلى تذكيرها بعلتها ويصف لها معاناته مع أبُوته المفقودة.

فلم يكن بحاجة إلى أن يبوح لها بشعوره بتلك الوخزة في قلبه كلما رأي طفلًا يلعب مع والديه في المنتزه أو يسير مع أبيه نحو المسجد، كان كمن يداوي الجرح بالجرح..يغرس خنجره عميقًا في قلبها، كانت المسكينة تتمزق من الداخل وتصرخ ألماً.

فالأمومة المفقودة تجعل للروح تجويفًا يُصفِر ويؤلم كلما عبر الهواء من خلاله، وكان قلبها يتصدع حزنًا كلما شعرت أنها السبب في حرمان زوجها من الأبوة ولم يكن ذلك يخفى على يوسف، وكان يعرف مدى عمق الجرح الذي تُصيبها به كلماته، لكنه لم يكن يأبى.

لا شيء في الحياة يظل على حاله، فالحياة مد وجزر.. ولابد من أن ينحسر النقاب وجه الحياة القبيح في يوم من الأيام، فرغم تميزه وتفوقه في العمل إلا أن ذلك لم يكن شفيعًا ليوسف حتى تظل وتيرة حياته المهنية على مسارها، فبعد أعوام من انجازات ونجاحات باهرة حققها يوسف في حياته المهنية شائت الأقدار أن يرتكب خطأ يمحو كل ماضيه المشرقويُرمى به في زاوية البطالة ليصبح فردًا جديدًا في صف العاطلين عن العمل، وكم كان طرده من العمل شاقًا على نفسه!

فهو لم يكن يتخيل أن كل صرح الانجازات الذي بناه بجده وعزيمته ليصل إلي سماء المجد التي حلم أن يعلوها ستتوج في النهاية بكلمة (مطرود).

أصبح يوسف عصبيًا متقلب المزاج،يتأفف من كل شيء، كان يصب كل غضبه وسخطه على جهاد في أي وقت وأي مكان وبحضور أيًا كان، أما هي فكانت تكتفي بالصمت حينًا وبمحاولة التخفيف عنه حيناً آخر، وكانت تبذل له الأعذار دومًا، فمرة تقول أنه يعاني من الإحباط بسبب طرده من العمل، وتارة تقول أنه يشعر بالغضب والاختناق لان أرباب العمل لم يقدروه كما يجب، أو تقول أنه يشعر بالعجز لأنه لا يجد عملًا آخر، وحاولت الكثير أن تساعده وبشتى الطرق، ولأنها لا تملك أي مؤهلات تساعدها على إيجاد وظيفة لها فقد اضطرت إلى أن تتخذ من الخياطة والتطريز مهنة لها.

لم تكن جهاد من النوع الكلول المَلول بل كانت تعمل بجد ونشاط لا ترى على وجهها إلا الابتسامة، تعكف على آله الخياطة خاصتها لوقت طويل حتى تُنهي ما يوكل إليها من عمل.

وقد شاء الله أن يُريها في هذه الصنعة أصنافًا من الناس ما كانت لتعلم بوجود أمثالهم لولا الظروف التي أجبرتها على هذا العمل، ففي حين كان البعض يقلل من قيمة صنعتها ويبخس لها أجرها، وكان البعض الآخر يستلم منها ما صنعته يداها ويمتنع عن دفع أجرًا لها.

وكم كانت تسعد بما تأخذه نظير عملها!

كما لو أنها ملكت مفاتيح خزائن السموات والأرض، فتزداد حماسة للعمل أكثر وأكثر وترتفع همتها لتحتمل السهر والكد، ويستبد بها التعب أحيانًا حتى يغريها بالنوم صوت آله الخياطة بوتيرته الثابتة، فتنهض لتغسل وجهها وتعود للعمل مرة أخرى.

لا يلبث الشتاء أن ينتهي مهما قست برودته، ولابد للربيع من أن يكسو وجه الأرض بحالةٍ خضراء مزدانة بالورود والفراشات.

وما أجملها الحياة عندما تُحاكي الطبيعة وتكتسب منها ألوانها وألحانها!

فتعود براعم الأمل لتنمو من جديد في قلب يوسف وجهاد، فبعد ثلاثة أعوام عجاف مرت على جهاد وزوجها أصابهما فيه قحطٍ شديد، جاء الفرج لينير حياتهما ويجعل من تلك السنوات مجرد ذكرى تُروى ولا تكاد تُصدقْ.

وأخيرًا وجدت يا يوسف وظيفة وعدت لتعمل!

وأخيرًا تلوح من على البُعد تباشير الراحة والهدوء يا جهاد!

كم كانت أيامًا مرهقة وصعبة عليها، لكنها الآن تستطيع أن تستريح..ولكنه الآن يستطيع أن يسافر.

هذا ما كان يفكر فيه يوسف طوال تلك الفترة، أراد دومًا أن يسافر لبعض الوقت، وما السفر أحيانًا إلا رحلة لنثر رفاه الماضي الأليم في نهر ينتهي بشلال يسقط خارج عالمنا، ولكنه لم يكن ليخسر شيء لو أنه اصطحب جهاد معه، غير أنه رفض قطعًا أن ترافقه، واحتج بأنه لا يملك ما يكفي من المال ليصطحبها معه، ورغم أنها كانت رافضة وبشدة أن يسافر بدونها إلا أنها استسلمت في نهاية المطاف ووافقت على سفره ووعدها بأنه لن يتأخر أكثر من أسبوعين.

سافر يوسف تاركًا خلفه جهاد التي كانت تتألم لفراقه فالفترة الحرجة التي عاشوها جعلت جهاد أكثر تعلقًا بزوجها، كانت تظن أنه بحاجة إليها، لكن سفره هذا جعلها توقن أنها هي التي تحتاج إليه.

ما أسوأ افتقار البشر للبشر!

فنحن لا ندوم لبعضنا والحياة تُجمع وتُفرق وهذا مذهبها فينا، لكن القلوب أجبرت علي التعلق بقلوب أخرى، والفطرة البشرية السليمة تُنافي التفرد بالذات، فالأبوة تحتاج إلى شخصين، والأخوة تحتاج إلى شخصين، والصداقة تحتاج إلى شخصين، والمزاوجة تحتاج إلى شخصين.

هكذا خلقنا الله منذ خلق أبانا آدم وجعل له زوجًا، ولكن بالرغم من ذلك يظل للتعلق حدودًا ربما لم تعرفها جهاد فتخطتها!

(3)

منذ اليوم الذي حمل يوسف حقيبته وخرج من البيت متجهًا نحو المطار كانت تقف كل يوم عند النافذة تنتظره أن يعود: (قال إنه لن يتأخر، لابد أنه سيعود اليوم) ويمر اليوم ويوسف لم يرجع بعد.

مر الأسبوعين كلمح البصر لكنها كانا أبطأ من السلحفاة بالنسبة لجهاد، وكم كانت سعيدة بمرورهما، رتبت البيت وعطرته، ولم تنسْ أن تتزين وتتجمل استعدادًا لاستقباله: (إنه عائد اليوم! سيدخل علي بعد قليل)..

- الساعة الحادية عشرة صباحًا.. (سيأتي بعد الظهيرة.. سأحضر الغداء.. بعض الحلوى.. هو يحب الحلوى)
- الساعة الرابعة عصرًا.. (سيأتي في المساء.. سأجهز العشاء.. بعض العصير.. سيحتاج إلى حمام دافئ.. المناشف في الحمام.. هذا الصابونله رائحة زكية)
- الساعة العاشرة ليلًا.. (سيأتي بعد منتصف الليل.. سأجهز السرير.. رائحة الفل في الغرفة سوف تشعره بالراحة.. ملابس النوم خاصته سأعطرها)

الساعة الواحدة بعد منتصف الليل.. الثانية بعد منتصف الليل.. الثالثة بعد منتصف الليل: (الله أكبر الله أكبر)

وها هو ذا المؤذن يرفع النداء لصلاة الفجر ليعلن عن بداية يوم جديد، ويوسف لم يعُد كما وعد.

"سأتصل به، أرجو أن لا يكون قد أصابه مكروه"

تملكها الخوف والقلق وأخذت تحاول الاتصال به دون توقف، لم يجيبها في المرة الأولى فعادة المحاولة، ولم يجيبها في المرة الثانية فلم تيأس، وأخيرًا أجابها في المرة الثالثة بصوت المستيقظ من النوم لتوه

- ألو!
- أجابته بلهفة: يوسف.. يوسف هل أنت على ما يرام؟
- أجابها متعجبًا: جهاد! نعم أنا بخير، ماذا هناك؟
- فقالت له:قلقت عليك لأنك لم تعُد، قُلت أنك لن تتأخر عن أسبوعين، كان الموعد بالأمس.
- فقال لها: الوقت مازال مبكرًا يا جهاد، ظننت أن هناك خطبًا ما، أيقظتني من النوم لهذا السبب؟
- فأجابته معتذرةأنا أسفه يا عزيزي، لقد كنت قلقة عليك وأردتُ الاطمئنان.

- ساد الصمتُ للحظات، ثم استكمل هو الحديث معها قائلًا

- عندما قلت لكي أنني لن أتأخر عن الأسبوعين لم أقصد أنني سأعود بمجرد انقضائهما، بل قصدت أنني لن أتأخر في العودة ولن أطيل السفر، كنت عائدًا بالأمس ولكنني لم أجد حجزًا، سأعود خلال بضعة أيام ما إن أجد الحجز، ولا تقلقي لن أتأخر فعلي أن أعود إلى العمل، هل اطمأننتِ الآن؟
- أجابته بصوت حزين: نعم.. المهم أنك بخير.
- فقال لها: حسنًا، سأعاود الاتصال بك في وقت لاحق، احتاج لقسط من الراحة.

مضت الأيام، وأصبح الأسبوعان شهرًا ويوسف لم يعد بعد، قلت اتصالاته، واتصالات جهاد أصبحت (مكالمات لم يُرد عليها)

كم كان مرور الأيام ثقيلًا عليها!

جفاها النوم وبات السفر رفيقًا لها، ولم يكن لها نصيب من الطعام إلا بقدر ما يأكل الطفل الصغير ويشرب.

تنام في فراشه وتشم رائحته آملةٍ أن تجد منها ما يطفئ شوقها، فقدت رغبتها في كل شيء، وأصبحت حياتها كئيبة وبلا ألوان حتى جاء ذلك اليوم الذي سمعت فيه صوتًا على الدرج، فعرفت أنه عاد، عرفته من رائحته التي سبقته إليها وهو يرتقي الدرج ومن صوت وقوع أقدامه عليه، فأسرعت لاستقباله والعالم بأكمله لا يسع فرحتها، في تلك اللحظة غزت ناظريها كل تفاصيله.. الجرح الصغير في فخده الأيسر الذي أصيب به عندما كان صغيرًا.. شغفه الطفولي بالسكر المترسب في قاع كوب الشاي.. طريقته الغريبة في تقشير نصف البرتقالة وأكلها دون تقشير النصف الآخر..

فتحت باب البيت بسرعة فإذا بيوسف يقف أمامها ممسكًا بالمفتاح في يده اليمنى وفي اليسرى كان يحمل حقيبته، فألقى بالحقيبة أرضًا وعانقها بحرارة، وما أكبرها من سعادة تلك التي شعرت بها جهاد حتى سالت من عينيها دمعًا غزيرًا.

- لماذا تأخرت؟ اشتقت إليك كثيرًا!
- وأنا أيضًا اشتقت إليكِ..أنا آسف يا زوجتي العزيزة، سامحيني!
- لا عليك.. لا عليك..المهم أنك عُدت إليّ على ما يرام.

كانت جهاد ملهوفة على يوسف فقالت له وهيا تمسح دموعها (أدخل لتستريح قليلًا)

لكن أمرًا غريبًا أستوقفها:

- عفوًا ماذا تريدين؟

قالتها جهاد بشاشة موجهة حديثها إلي تلك الفتاة الغريبة التي كانت تقف غير بعيد عنها وهي تنظر إليها بتأثر.

أرادت الفتاة أن تجيب لكن يوسف قاطعها

- جهاد، هيا لندخل إلي الداخل أريد أن أتحدث إليك قليلًا.

أجابته جهاد بشيء من الحرج

- عزيزي ماذا تقول؟
لا يمكن أن ندخل ونترك الفتاة واقفة هناك، ربما تائهة!

ثم أردفت موجهة حديثها للفتاة

- أخبريني بأسم البيت الذي تريدينه، المنازل في هذا الشارع متشابهة لكني أعرفهم جيدًا ويمكنني مساعدتك.

ومرة أخرى تحاول الفتاة أن تجيب ويقاطعها يوسف ويقول بتوتر

- جهاد أرجوك علينا أن نتكلم

نظرت جهاد إلى زوجها وانتابها شعور مفاجئ بعدم الارتياح

- ماذا هناك يا عزيزي؟
لِم لا تسمح بمساعدة هذه الفتاة؟
ما الأمر؟

سكت يوسف قليلًا ثم قال

- جهاد.. إنها رقية.. رحبي بها أرجوكِ.

نقلت جهاد ناظريها بين يوسف ورقية وقالت ببشاشة

- هيا ضيفتنا إذًا أهلًا بكِ يا عزيزتي، تفضلي بالدخول.

- لا.. إنها زوجتي.
- زوجتي! نزلت هذه الكلمة على جماد كالصاعقة.

(4)

لم تصدق جهاد هذه الكلمة التي دوت في أذنيها دوي الرعد، فسألته بقولها

- ماذا قلت يا عزيزي؟ لم أسمعك جيدًا، كأنك قلت أنها....

فقاطعها قائلًا

- زوجتي.. إنها زوجتي الجديدة رقية، رحبي بها أرجوكِ.

كأن الأرض اهتزت تحت قدميها ففقدت توازنها وكادت أن تسقط لولا أنها استندت إلى الجدار، هم يوسف بالإمساك بها لكنها ابتعدت عنه وقالت

- أنا ذاهبة إلى غرفتي.

ثم نظرت إلى رقية وقالت لها بابتسامة حزينة وقد امتلأت عيناها بالدموع

- تفضلي بالدخول، فهذا البيت أصبح بيتك، اسمحا لي.

دخلت جهاد إلى غرفتها مسرعة وارتمت على فراشها تبكي بحرقة، لم يكن بكاؤها بسبب زواج يوسف، فهي لم تنسَ أنها من طلب إليه ذلك منذ البداية، وهي لم تتراجع عن هذا الطلب قط، فقد كانت مقتنعة بأنه يحق له أن يتزوج من امرأة أخرى تنجب له الأبناء.

لكن الذي أبكاها أنه لم يكلف نفسه عناء إخبارها بالزواج قبل إقدامه عليه مع أنه يعرف تمامًا أنها لن تمانع، تذكرت سفره وكيف قضت شهرًا ونصف الشهر تفكر به، وكل تلك الساعات التي بكت فيها من فرط شوقها إليه.. أفكار وصور وخيالات اجتاحت عقلها في تلك اللحظة.. تخيلته وهو يهمس في أذن رقية كما كان يهمس في أذنها.. و يطعم رقية بيده كما كان يطعمها.. يشرب من نفس الكأس التي تشرب منها رقية.. بل ويضع شفتيه على نفس الموضع الذي وضعت شفتيها عليه.. يقبل رقية كما كان يقبلها.. و يحب رقية كما كان يحبها.. كانت تتخيل صورته كيف يعامل رقية بذات الطريقة التي كان يعاملها بها دون أن يذكره ذلك بأيامٍ جميلةٍ قضاها مع جهاد.

هل يعقل أن يأكل بدون جهاد؟

هل يعقل أن يرتدي ثيابًا دون أن يفكر فيما إن كانستعجب جهاد؟

هل يعقلأنيسهرليلًاأمامشاشةالتلفازبدونجهاد؟

أمهلايمكنأنيربوردةجميلةولايتذكرجهاد؟

كانتمطالبهاصغيرةومتواضعة،أرادتهاأنيحبهاكماتحبه..لا..بلبنصفمقدارحبهاله..لا..بلبربعمقدارحبهاله..

المهمأنيراها في كل النساء.. أن تجتاح ذاكرته في كل لحظة ومع كل أغنية حب وشعر غزلي.. أن يشم شذاها في كل الورود.. وأن تكون في ناظريه عنده أجمل من كل النساء.. وكلماتها في أذنه أشجى من الغناء.. ورائحتها عنده أطيب من العطور الفرنسية.. وريقها أروى من الماء..

كانت تريده أن يفكر فيها حتى عندما يكون مع أصدقائه، وعندما يتحدث الناس عن الحب كانت تريده أن يضحك ساخرًا منهم ويقول لهم:

- ماذا تعرفون عن الحب إن لم تعرفوا جهاد؟

لكنه نسيها حتى قبل أن يتزوج بأخرى، لم يخبرها بعزمه على الزواج، ولم يبلغها بزواجه بعدما أقدم عليه.. كانت دموعها لاتزال تنهمر عندما طُرق باب غرفتها، لكنها لم تجب الطارق، و بعد لحظات فُتح الباب ودخل يوسف، نظرت جهاد إليه ورمقته بنظرة عتاب ثم أشاحت عنه

وقف يوسف محتارًا لا يدري ماذا يقول أو من أين يبدأ!

ثم اقترب منها وجلس إلى جانبها ونظر إليها ملّيا بصمت، ثم مد يده محاولًا مسح دموعها لكنها نهضت من مكانها ومشت خطوتين مبتعدةً عنه، فأنزل يدهوقال لها بنبرة هادئة:

- ألم تكن هذه رغبتك منذ البداية؟
ألم تطلبي إلي أن أتزوج بأخرى؟
إذن فلما بكاءك الآن؟

فأجابته:

- نعم لقدكانت رغبتي، و لكن ليس خفية عني، لماذا تزوجت دون أن تخبرني؟

سكت قليلًاثم قال لها:

- لم أكن أقصد ذلك، خشيت من رد فعلك، لم أرد لك أن تتألمي ليلة زفافي وتتألمي مرة أخرى عندما ترينها وهي تدخل البيت، أعترف بأنني أخطأت بذلك لكنني لم أكن أقصد بتصرفي سوءًا..أنا آسف سامحيني.

لم ترد جهاد على كلام يوسف وظلت صامتة، لكنه قال لها مُسْتَدِركًا عطفها:

- لم يخطر يومًا ببالي أن أستبدلك بأي امرأة مهما بلغ جمالها، أنتِ حبي الأول الذي لا يمكنني العيش بدونه، وأنت تعرفين كم مرة طلبت إلي أن أتزوج لكنني كنت دومًا أرفض ذلك، ولولا الأبوة التي ألحّت علي وبذلك ما كنت لأنظر إلى غيرك، لكنني بشر ولا أملك مشاعري، ليتني أستطيع أن أقتل في داخلي ذاك الشعور بالنقص والاحتياج إلى أن أكون أبًا!
لما كانت امرأة في الوجود لتكون بيني وبينك..إن شئت أن أفارقها فسأفعل ولاأسفًا عليها، المهم أن تسامحيني، أرجوك سامحيني، أنا آسف!

رق قلب جهاد لتوسلات زوجها، فالتفتت إليه ببطء و سألته قائلة:

- هل أنت جاد؟
إن طلبت إليك أن تطلقها هل ستفعل ذلك حقًّا؟

نهض يوسف من مكانه واتجه نحو الباب بسرعة وهو يقول:

- سترين هذا بنفسك الآن.

ففزعت جهاد واستوقفته:

- لا أرجوك انتظر.. لا تفعل ذلك..كنت أسأل فحسب.

فالتفت إليها يوسف وسألها:

- إذاً ماذا تريدينني أن أفعل حتى تصفحي عني؟
سأفعل أي شيء من أجلك.

فقالت له بعد لحظة صمت:

- فقط.. لا تنسني.

فتقدم نحوها بخطوات سريعة وعانقها قائلًا:

- كيف لي أن أنساك يا حبيبتي ويا مهجة فؤادي؟

فقالت له:

- أتمنى أن تعوضك رقية بإنجاب الأطفال الذين لم أستطع أن أنجبهم لك يا عزيزي.

ثم أردفت:

- لابد أن رقية قد انزعجت من رد فعلي، سأذهب إليها.

وابتعدت عن يوسف متجهةً نحو باب الغرفة، وقبل أن تخرج استوقفها يوسف قائلًا:

- عزيزتي، أريد أن أطلب منك معروفًا.

فالتفتت إليه وقالت مبتسمة:

- تفضل يا عزيزي اطلب ما تشاء.

فاقترب منها يوسف وأمسك يدها بحرارة ثم قبلها على يدها وهو يضع كفه على خدها ويقول:

- تعلمين يا عزيزتي أنني لم أكن أنوي الزواج؛ ولذلك لم أقم بالتحضيرات اللازمة ولم أعد غرفةً خاصة لرقية، وأنا لا أريدها أن تشعر بالظلم أو بأنه غير مرحب بها هنا خاصة وأنك موافقة على هذه الزيجة.. فهل يمكنك إعارتها غرفتك ليومين فقط؟

نظرت جهاد إلى يوسف باندهاش وسألته:

- ولكن..أين سأنام أنا؟

فأجابها:

- لحظة دعيني أفكر قليلًا..أعتقد أنه من الأفضل لك ولرقية أن تناما معًا في هذه الغرفة ريثما أجهز لها غرفة وأشتري لغرفتنا أثاثًا جديدًا، فقد أصبحت قديمة وأريد أن أغيّرها من أجلك.

انبسطت أسارير جهاد لما قاله يوسف، و سر قلبها أنه مازال يفكر فيها، فسألته قائلة:

- حقًّا يا عزيزي؟!
هل تريد تجديد غرفتنا؟

فابتسم يوسف وأجابها بنبرة صوتٍ حانية:

- بل أريد تجديد حياتنا بأكملها.

فابتسمت جهاد بخجل ثم قالت له:

- حسنًا، يمكنكما أن تناما في غرفتي ريثما تنهي تجهيز غرفةٍ لرقية.

فقال لها:

- لا يا عزيزتي، سأنام أنا في غرفة أخرى ويمكنكما النوم في هذه الغرفة أنتِ ورقية.

لكن جهاد رفضت قائلة:

- لا لا يا عزيزي، هذا أول يوم لرقية هنا في هذا البيت ولا يمكن أن تمضي ليلتها بعيدًا عنك. فهي لم تعتد بعد علي أو على المنزل، لا ضير من نومي في غرفة أخرى ليومين حتى نعيد ترتيب منزلنا، وربما أمضيت الليلة مع جارتي حنان نتسامر ونلهو، فلقد مرّ وقت طويل منذ آخر مرة تسامرت فيها وإياها، وأنا بشوق لسماع أحاديثها الممتعة، أرجوك يا عزيزي اسمح لي بالمكوث مع حنان في هاتين الليلتين.

فقال يوسف بسرعة:

- مادامت هذه رغبتك فلا بأس، لا يمكنني أن أرفض لك طلبًا.

(5)

قضت جهاد ليلتان في منزلي، وفي الحقيقة كنت أظن أن يوسف سيخلف وعده مجددًا وأن جهاد قد تبقى عندي لبضعة ليالٍ أُخر، لكنه فاجأني عندما طرق باب منزلي وطلب من جهاد أن ترافقه ورقية لتختارغرفتها.

وكم كانت جهاد سعيدة بذلك!

اصطحب يوسف زوجتاه إلى محل بيع الأثاث وقامت كل واحدة منهما باختيار أثاث غرفتها الذي تريد، اختارت جهاد أثاثًا ذا تصميم بسيط أبيض اللون، في حين انتقت رقية أثاثًا فاخرًا باللون الأسود المحلى بالفضي اللامع، وقام يوسف بدفع الثمن والاتفاق مع البائع على أن يوصل الأثاث إلى عنوانهم في اليوم التالي.

وفي تلك الليلة قمت بمساعدة جهاد في توضيب أغراضها في صناديق كبيرة استعدادًا لتفكيك الأثاث القديم، كان عملًا شاقًا، فجهاد كانت تحتفظ بالكثير من الأشياء التي لا نفع منها، وكانت تحتفظ بصندوقين متوسطي الحجم يحويان الكثير من الأوراق علاوة على ملابسها والأغراض التي كانت تستعملها، وعندما شارفنا على الانتهاء طُرق باب الغرفة، فردت جهاد:

- تفضل.

ففتح الباب فإذا هي رقية، نظرت جهاد إليها وقالت متبسمة:

- أهلاً رقية!
  هل أساعدك بشيء؟

فأجابت رقية بلطف:

- لا شكرًا، فقط أردت أن أساعدكما.

فشكرتها جهاد قائلة:

- أشكرك يا عزيزتي، لقد أنهينا العمل ولم يبق لنا غير نقل الصناديق، أرجوك استريحي ولا ترهقي نفسك.

فقالت رقية:

- حسنًا، ولكن سأحضر لكما القهوة.

ردت عليها جهاد:

- لا بأس بذلك

خرجت رقية من الغرفة وأغلقت الباب، و قلت لنفسي:

- يبدو أن رقيةحاملًا!

لكنني لم أجرؤ على السؤال، ثم تذكرت أغراض يوسف فسألت جهاد:

- هل نشرب القهوة أولًا قبل توضيب أغراض زوجك؟

فأجابتني:

- لا يا عزيزتي، سنشرب القهوة ونستريح، فقد أنهى يوسف ورقية توضيب أغراضهما باكرا قبل ذهابنا إلى محل بيع الأثاث

فسألتها قائلة:

- اها..ألهذا طلبت إلى رقية أن ترتاح؟
لأنها عملت طول النهار؟

فضحكت جهاد وقالت:

- وهل ظننتها حاملًا!

*****

في اليوم التالي وصل الأثاث، ومكثت جهادورقية في منزلي ريثما ينهي العمال تركيبه، جلسنا نتحادث ونضحك ونشرب القهوة، وقد استلطفت رقية بعض الشيء ولاحظت أنها تنسجم وجهاد كما الأختين.

وبعد أن انتهى العمال من تركيب الأثاث أصرت جهاد أن أذهب معها لأرى غرفتها الجديدة، وقد كانت رأيت في عينيها ذلك الحماس الطفولي الذي يشع من عينيها كلما شعرت بالسعادة، لشدة سعادتها حتى أنها لم تسمع يوسف وهو يناديها مستوقفًا.

وعندما وقفنا أمام باب غرفتها وفتحت جهاد الباب أصابتنا الدهشة!

كانت الغرفة جميلة ومرتبة ولكن كان هناك أمرًا غريبًا، فسألتها قائلة:

- أهذا أثاث غرفتك الذي أخبرتني عنه!

فأجابتني وعلى وجهها علامات التعجب والاستغراب:

- لا!
هذه ليست الغرفة التي اخترتها.. إنه.. أثاث رقية!

ثم ِالْتفتت إلى يوسف وقالت له:

- عزيزي!
لقد أخطأ العمال في تركيب الأثاث، فقد وضعوا أثاث رقية في غرفتي؟

لكن يوسف رد عليها بقوله:

- لا يا عزيزتي!
هم لم يخطئوا بشيء، أنا طلبت إليهم وضع أثاث رقية هنا في هذه الغرفة.

فنظرت إليه بتعجب و سألته قائلة:

- و لكن.. لماذا؟
أخبرتني أن رقية ستقيم في غرفتي مؤقتًا.

فأجابها ببعض التردد:

- أجل هذا ما قلته، لكنني شعرت فيما بعد أن الحجرة قد نالت استحسان رقية، ففكرت بأن أستبدل لك الحجرة بحجرة أخرى من حجرات المنزل، لاسيما أنك معتادة على البيت كله على عكس رقية؛ لذلك ركبتأثاث رقية هنا وركبت أثاثك في الحجرة المجاورة ونقلت أغراضك إليها أيضًا.

فقالت رقية معترضة:

- ولكن يا عزيزي عندما أثنيت على جمال الغرفة لم ُأكن أقصد أنني أريدها أن تكون غرفةً لي، بل قصدت أن لجهادذوق رفيع وأنها رتبتها بطريقة مميزة، كنت لأرضى بأي حجرة أخرى فكل الحجرات في البيت متشابهة!

فردّ عليها يوسف:

- طالما أن كل الحجرات متشابهة فلا ضير من أن تكون هذه حجرتك والأخرى حجرة جهاد، فقد تم تركيب الأثاث وانتهى الأمر، أليس كذلك يا جهاد؟

أجابته جهاد بابتسامة مصطنعة:

- أجل، لا بأس بذلك يا عزيزي.

ثم سألته رقية بعد لحظة صمت:

- حسنًا، أين أغراضي؟

فأجابها مبتسماً:

- لقد رتبتها لك داخل خزانتك، ولماذا تأخرت في اعتقادك؟

فضحكت رقية وقالت:

- أشكرك يا عزيزي.

نظرتُ إلى جهاد ورأيت على وجهها علامات الانزعاج، فقلت لها:

- هل ستظلين واقفة؟
  ألن تريني غرفتك؟

فنظرت إليّ وابتسمت وقالت:

- هل تريدين رؤيتها؟

فأجبتها:

- نعم أريد ذلك

فأمسكت بيدي وهي تقول:

- هيا بنا

ثم ِالْتفتت إلى رقية وقالت لها:

- هيا يا رقية، ألا تريدين رؤية الغرفة؟

فابتسمت رقية وأجابتها:

- بالطبع أريد ذلك

فاتجهنا نحو الغرفة الأخرى، وكانت جهاد لا تزال تحتفظ ببعض حماسها وسعادتها، ولما فتحت باب الغرفة وددتُ لو أنني لم أطلب إليها رؤية الغرفة، كان الأثاث قد تم تركيبه وقد كان جميلًا وبسيطًا تمامًا كصاحبته.

لكن صناديق أغراضها كانت مبعثرة في أنحاء الغرفة، والورق الذي كان يغلف بعض قطع الأثاث كان ملقًا على الأرض، ولم يتم ترتيب الأثاث بل رُكب ووضع في الغرفة بعشوائية، وقطع الخشب التي توضع على السرير لتحمل اللحاف كانت مسندة إلى الجدار وكان السرير مجرد هيكل فقط.

نظرت إلى صديقتي ونظرت هي إليّ فرأيت في عينيها خيبة الأمل، فقد ظنت أن يوسف قد رتب غرفتها كما فعل بغرفة رقية، لكن منظر الغرفة كان صدمة لها ولي وحتى لرقية، ثم ابتسمت وقالت:

- أظن أنه لدي الكثير من العمل هذه الليلة

فقال يوسف معتزرًا:

- أنا آسف يا عزيزتي، أردت أن أرتب لك الغرفة، لكنني تعبت من العمل، وقد خشيت أيضًا أنني قد أتسبب لك في ضياع بعض الأشياء المهمة، فأنا أعرف أنك دقيقة في ترتيب أغراضك.

ِالتزمت جهاد الصمت ولم تجبه، فقلت لها في محاولة مني لتغيير هذا الجو المشحون بالكآبة:

- انظري إلى الجانب المشرق، هذه الفوضى تعني أنك ستنامين عندي لليلة أخرى.

فابتسمت ابتسامة حزينة وقالت:

- يبدو أنني سأعتاد الأمر

فقلت لها:

- ألا يعجبك المبيت عندي؟

فأجابتني بنبرة معتذر:

- لا لا يا عزيزتي ليس الأمر كذلك، و لكن ...

فقاطعتها قائلة:

- حسناً هيا بنا، فلتعودي معي إلى منزلي ولنأخذ معنا بعض الصناديق لنرتبها هناك فلا يبقى لنا غير وضعها في الخزانة، سنتناول طعام العشاء ثم نتسلى بها.

فنظرت إلي وابتسمت وقالت:

- حسناً، هيا بنا

حملت صندوقًا متوسط الحجم خدعني بحجمه فقد كان أثقل مما ظننت، وحملت جهاد صندوقًا آخر بدى لي أنه أقل وزنًا من الذي حملته رغم أنه أكبر حجمًا، ثم تمنت جهاد لرقية ويوسف ليلة سعيدة وخرجت وإياها من شقتها ودخلنا إلى شقتي.

(6)

رافقها السهر وخاصمها النوم في تلك الليلة، وما بين الحيرة والألم دار قلبها وعقلها في فلك يوسف الذي لم يعد يوسف منذ زواجه برقية.

كانت تتساءل ما الذي غيره هكذا بين ليلة وضحاها!

وفي ذات الوقت كانت تبحث عن أعذار تبذلها له كما كانت تفعل دومًا، أي عذر مهما بلغت تفاهته كان لا يفي بالغرض، ولم يكن غرضها أن يستطيع قلبها الصفح عنه، إنما هي لم ترد أن يبقى في قلبها عتب عليه، لكنها لم تجد مبررًا، عندها اكتفت بأن تقنع نفسها بأنه لم يكن يقصد..

كانت الساعة قد ناهزت الواحدة بعد منتصف الليل عندما وضعت آخر ملف من ملفات وأوراق جهاد داخل الصندوق المتوسط، كان ملفًا أبيض اللون يحمل شعار إحدى المستشفيات، فانتابني فضول لأعرف محتواه، فسألتها وأنا أرفع الملف لأريها إياه:

- جهاد، ما هذا الملف؟

فنظرت إليه وأجابت دون أن تضطر إلى فتحه:

- هذه تحاليل يوسف، أجراها للتأكد من قدرته على الإنجاب.

فسألتها:

- وكيف كانت نتائج تحاليله؟

فأجابتني مشيرةً بإبهامها إلى الأعلى:

- ممتازة!

لكن تحاليلي أنا هي التي لم تكن على ما يرام، بحثت عن العلاج كثيرًا وزرت الكثير من الأطباء، لكن ذلك لم يجدي نفعًا.

نظرت إليها باندهاش فلفتت نظراتي انتباهها، فقالت لي وهي تبتسم:

- أنا لست عاقرًا إن كان هذا ما يجول بخاطرك.

فشعرت بالحرج وضحكت قائلة:

- هل تقرئين أفكاري أم ماذا ؟

فضحكت وأجابتني:

- لا يا عزيزتي، ولكنني أعلم أن الناس يظنونني كذلك، هم لا يعرفون أنني كنت أعاني من علة بسيطة وأنني أتممت علاجي وشفيت منها.

فسألتها بتعجب:

- هل أتممت العلاج حقًّا!

فأجابتني:

- هذا ما قاله لي الأطباء، لكنني لم أحمل حتى الآن!

فقلت لها:

- لا تفقدي الأمل يا عزيزتي، فكل شيء بيد الله.

فقالت بصوت حزين:

- ونعمةبالله!
كم أتمنى من الله أن يرزقني بطفل يرضي أمومتي!
إنه لشعور مؤلم أن يعيش الإنسان الحرمان من هذه النعمة

شعرت بالشفقة على جهاد لما تعانيه، فطوقتها بذراعيّ وقلت لها:

- أنا واثقة بأن الله سيلبي نداءك.

لاذت بالصمت لبرهة حتى ظننت أنها تبكي، لكنها تمالكت نفسها وقالت لي مازحةً في محاولة لتغيير هذا الجو الحزين:

- هل تواسينني لتهربي من العمل؟
لن أنخدع بهذه الحيلة، عودي إلى عملك.

******

استيقظت في الصباح الباكر وكانت جهاد لا تزال مستيقظة، وعندما رأتني حيتني ببشاشة وعرضت علي المساعدة في تحضير الفطور، وبعدما انتهينا من تناول طعام الفطور قمنا من فورنا بحمل الصندوقين اللذين رتبنا محتوياتهما في الليلة السابقة وذهبنا إلى شقة جهاد.

لكنني هذه المرة حملت الصندوق الأكبر ظنًّا مني أنه أخفّ وزنًا، لكنه لم يكن كذلك بل كان يضاهي نظيره في الوزن، دخلنا إلى غرفة جهاد ووضعنا الصناديق على الأرض، و لم يبق لنا غير إفراغها ونقل ما بداخلها إلى الخزانات.

فتحت جهاد الخزانة وبدأنا بترتيب ملابسها وأغراضها الشخصية، لم يكن العمل شاقًا، فقد وضعت جهاد كل شيء بترتيب ودقة في الصناديق ولم نقم سوى بنقلها دون عناء، وبعدما انتهينا من ترتيب كل شيء و لم يبق غير الأوراق، كنت أخرج الأوراق من الصندوق وأعطيها لجهاد لترتبها في الأدراج كما تريد

وبينما كنت أخرج بعض الأوراق لفت انتباهي ملفًا أبيض اللون يحمل نفس الشعار لنفس المستشفى، فرفعته لجهاد وسألتها:

- جهاد، هل هذا الملف لك؟

فنظرت إلي وأجابتني:

- لقد سألتني عنه بالأمس يا حنان، إنها نتائج تحاليل يوسف
هل نسيتي؟

فقلت لها:

- لا لم أنسَ، ولكن كم مرة أجرى زوجك هذه التحاليل؟

فأجابتني:

- مرةً واحدة لا غير

ففتحت الملف واطلعت على الأوراق على عجل، فجذبتها جهاد من يدي بقوة وقالت باستياء:

- لا يجدر بك الاطلاع على خصوصيات الآخرين دون إذن، تعلمين جيدًا أنني لا أحب أن يتطفل أحد على أشياء زوجي

لم تكن جهاد تعرف أن يوسف قد أجرى هذه التحاليل أكثر من مرة واحدة، ولم تكن تعرف أيضًا أنني أخذت تلك الأوراق التي سألتها عنها بالأمس خلسةً، وأمرآخر لم يكن أحد يعلمه قبلي إلا يوسف.. وهو أن هذه الأوراق تشبه تلك التي بحوزتي.. حتى في نتائجها...

(7)

تتغير الأيام وتتبدل الأحوال، ببطء شديد أو بشكل ملحوظ، لا يهم!

المهم هو ما يشعرنا به هذا التغير.

هل يسعدنا أم يحزننا؟

هل يضحكنا أم يبكينا؟

هل يجرحنا أم يداوينا؟

كل شيء تغير من حول جهاد واختلف عليها، زوجها.. بيتها.. وحتى انعكاسها في المرآة قد تغير فلم تعد تعرف نفسها.. كيف لا يبدو لها زوجها غريبًا وقد غيّر في نفسه كل ما كان يعجبها فيه! شعره الأبيض قد اصطبغ بالسواد ليبدو به أصغر سنًّا، وملابسه التي اعتادت أن تراها عليه إلى ملابس أكثر شبابًا، وكتبه التي كان يعكف عليها لساعات طوال هجرها وانصرف عنها إلى السهر في المطاعم والمنتزهات مع رقية، والعطر الذي اعتاد وضعه منذ زواجه بجهاد قد استبدله بنوع آخر، وحتى طريقة حديثه معها ونظراته إليها تغيرت.

كيف لا يتغير عليها بيتها وقد تغير فيه كل ما اختارته لتنسيقه!

كل ركن في ذلك البيت كان يحمل ذكرى لجهاد ويوسف، كل قطعة أثاث حملت ذكرى لهم.. كل تحفة.. كل لوحة عُلقت على جدار..كانت ترى تلك الذكريات كلما الْتفتت إلى زاوية من زوايا المنزل، ولكن تلك الذكريات رُمي منها مع ما رُمي من التحف التي استبدله يوسف ورقية، وبيع بعضه مع ما بِيع من الأثاث، وطلي بعضها الآخر مع الجدران التي طُليت.. كنت ألقي باللوم على رقية لأنها غيّرت أثاث البيت، ولكن عليّ أن أكون منصفة وأقول أنها ليست المُلامة على ذلك؛ فتلك الذكريات لا تعني لرقية شيئًا، ولا يفترض أن تعني لها شيء.

فهي لم تعشها ولم تسمع عنها ولا تعرف عنها شيئًا، لكن الملام هو يوسف الذي نسي جهاد وكل السعادة التي منحته إياها، فرقية لم تفعل أكثر من إبداء إعجابها بلون جدران منزل ياسمين أخت يوسف، فما كان من يوسف إلا أن أعاد طلاء البيت كله باللون الذي نال إعجاب رقية، لكن الطلاء الجديد لم يعجب رقية لأنه لا ينسجم مع الأثاث القديم؛ لذلك اصطحبها يوسف هي وجهاد لتختارا الأثاث الجديد، لكنني عرفت بمجرد أن رأيت البيت

بالأثاث الجديد أن جهاد لم تقم باختيار شيء، وعرفت في اللحظة التي رأيت فيها وجه جهاد أنها ليست راضيةً عن أي من هذا.

*****

كيف لا يختلف عليها شكلها وقد لا يتغير عليها شكلها.

وقد أصبحت مرآتها تعكس لها شبح امرأة مخيف!

ليس ذلك لأنها قبيحة، ولا لأنها أصبحت عجوزًا، بل لأن التعاسة التي أصبحت تعيشها أطفأت نور البهجة الذي كان يعلو جبينها، وأصبحت عيناها حزينتين لا حياة فيهما، حتى نبرة صوتها وابتسامتها وكل شيء جميل فيها ذوى وذبل ولم يعد له أثر.

فكيف لا تتعجب عندما تنظر إلى المرآة وترى السواد الداكن الذي تركه السهر حول عينيها؟

وكيف لا تندهش عندما ترتدي فستانًا كان يعجب يوسف في يوم ما لتجده قد أصبح واسعًا عليها؟

وما الفائدة من ارتدائه إن كان يوسف لا ينظر إليها ولا يلحظ ما ترتديه إن صادف أن وقع بصره عليها!

لم يعد يوسف يأبه لها، ولم يعد يهتم بها، حتى أنه مضى زمن طويل منذ آخر مرة دخل فيها إلى غرفة جهاد، وربما هو لم يعد يذكر للغرفة شكلًاأو لونًا.. جهاد الزوجة الطيبة الصبور لم تشتكِ يومًا من زوجها، ولم تفشِ يومًاأسرار بيتها لا الصغيرة منها ولا الكبيرة، تأتي إلى منزلي حزينة تحاول أن تبتسم وأن تسلو عن همومها، تحاول ألاّ تشعرني بحزنها وألمها، و لكني أعرفهاأكثر مما كانت تظن، وعندما أضغط عليها وأُلحّ في السؤال وأُصرّ على أن تفتح لي قلبها..

حينها فقط تنفجر جهاد ولأول مرة منذ سَكنتُ إلى جوارها قبل ثلاثة عشر سنة، جهاد.. الصبورة الصامدة كالجبل في وجه الريح تعبت من الصبر واستبد بها الألم حتى فقدت رباطة جأشها.

تصرخ وتبكي.. نعم.. كانت تبكي بكاءً مريرًا وقفت أمامه عاجزة عن الرد متألمّة من الصمت:

- آهٍ يا صديقتي لو تعرفين ما آلت إليه حياتي..

حكت لي جهاد بانفعال لا تكف فيه عن البكاء:

- بعد كل تلك السنين التي قضيتها مع يوسف اكتشفت الآن أنني لم أعرفه قط، لمْ أكن أعرف أنني بهذا الهوان عنده إن مشاعري لا تهمه، يعاملني كما لو أنني حجر بارد أصم، إنه لم يكن يبالي بآلامي وما

أحس يومًا، لكنه على الأقل كان يجلس إلي ويحادثني، وعندما كنت أغيب عنه كان يتفقدني.. لكنه الآن قد استغنى عني واكتفى برقية.. لم يعد يدخل إلى غرفتي، حتى أنه لا ينظر باتجاهها، كم من المرات تركت الباب مفتوحًا لعله يتذكر الدخول إلى غرفتي إذا ما رأى بابها مفتوحًا، ولكن دون جدوى، عندما كنت مريضة قبل شهرين ولازمت الفراش لخمسة أيام لم يعلم بأني مريضة إلا بعد ما سألتني رقية عن حالي بحضوره رغم أنني لم أخرج من غرفتي لخمسة أيام ولا تناولت وجبة معهم.

كيف لم يلحظ غيابي طوال تلك الأيام الخمس؟

ما الذي فعلته لأستحق منه هذا الجفاء؟

فاقتربت منها وحاولت تهدئتها وأنا أقول:

- أرجوك يا عزيزتي!

توقفي عن البكاء..أنا واثقة بأن يوسف يحبك، إنه لن يقصد إيذاءك أو جرح مشاعرك، تحدثي إليه عن هذا الأمر، سترين كم سيكون متفهمًا

ابتسمت جهاد ابتسامة ساخرة وقالت:

- أتحدث إليه!

متى؟

أليس من المفترض أن أراه أولاً حتى أستطيع التحدث إليه!

ثم أردفت:

- هذا البيت لم يعد بيتي منذ زمن طويل، بعد كل تلك السنوات التي قضيتها أعتني فيها ببيتي وزوجي أصبحت مهمشة لا مكان لي فيه، ليتني أستطيع الخروج من هذا البيت فأنا لم أعد أطيق العيش فيه.

فأمسكت بيدها وقالت لها:

- يا صديقتي العزيزة!

تعلمين أنه يمكنك الاعتماد عليّ في كل شيء، و إن أردتي ترك بيتك فباب بيتي مشرع لك، ولكن.. أنا على يقين أنه يمكنك فعل أفضل من ذلك، يمكنك استعادة بيتك وزوجك ومكانتك أيضًا، تحلي

بالقوة وابدئي أنت بالخطوة التي كان على يوسف أن يبدأ بها، لا تنتظريه ليأتي إليك، بل اذهبي أنت إليه.

فنظرت إلي بتعجب وسألتني قائلة:

- كيف أفعل ذلك؟

لا أعرف من أين أبدأ!

فأجبتها:

- لا عليك.. دعي الأمر لي، لدي بعض الأفكار ستساعدك كثيرًا.. تعالي معي.

*****

أمسكت بيد جهاد ودخلت وإياها إلى غرفة نومي، كان لدي في الغرفة صندوق أصفر جميل محلى بالورود السوداء، كنت أحتفظ فيه بالكثير من الأغراض، وورود اصطناعية جميلة بألوان مختلفة، بطاقات مميزة للمعايدة، وأوراق ملونة زاهية الألوان، وبعض الأقلام والمقصات والغراء وأشياء أخرى كثيرة أتسلى بها في أوقات فراغي.

نظرت جهاد إلي بدهشة وقالت:

- لا أفهم كيف ستفيدني هذه الأشياء

فأجبتها:

- اصبري وسترين..الآن أخبريني ما اللون الذي يحبه يوسف؟

فسألتني قائلة:

- ولمَ هذا السؤال؟

فقلت لها وقد أبديت بعض الانزعاج:

- لا تكوني مزعجة، أجيبيني وحسب

فأجابتني:

- الأزرق.. إنه يحب اللون الأزرق.

فأمسكت بورقة زرقاء وصنعت منها قلوبًا صغيرة، ثم ألصقتها بشكل عشوائي على ورقة سوداء وزينتها بورود اصطناعية بيضاءاللون، ثم الْتفتت إلى جهاد التي كانت تنظر إليّ بصبر نافد وقلت لها:

- والآن أخبريني عن أشياء تودين قولها ليوسف

فسألتني بتعجب:

- أشياء مثل ماذا؟

فقلت لها:

- أي شيء.. أقصد..
  لماذا تحبينه؟
  ما الذي دفعك لاختياره هو دون غيره؟
  ما الأمور التي تعجبك فيه؟
  أشياء كهذه.. هيا! فكري!

ِالتزمت جهاد الصمت قليلًا ثم ابتسمت وقالت:

- أحبه لأنه.. لأنه طيب القلب، ولأنه حنون وعطوف، أحبه لأنه يعرفني جيداً، يعرف ما الذي يفرحني وما الذي يحزنني، يعرف ما الذي يضحكني وما الذي يبكيني، ويعرف كيف يجعلني أبتسم وأضحك، أحبه عندما يهمس في أذني قائلًا: اشتقت إليكِ.. أحبه عندما يضحك كطفل صغير وعندما يبكي بين ذراعي..

كتبت كل ما قالته وأملته علي جهاد على ورقة زرقاء وألصقتها على الورقة السوداء ثم طويتها لتصبح على هيئة بطاقة معايدة وصنعت لها مغلفًا وضعتها فيه.

بعدها أخذت جهاد البطاقة وأسرعت إلى منزلها، وقامت بتجهيز عشاء فاخر ليوسف، وزينت غرفتها بالورود والشموع وعطرتها، ثم ارتدت أجمل ثيابها وتزينت حتى بدت في قمة الجمال والروعة، لكنها كانت في حيرة من أمرها أين تضع الرسالة ليوسف بحيث يراها بمجرد وصوله إلى البيت:

- إنه يحب تناول العصير حال دخوله إلى المنزل.

قالت لنفسها:

- لابد أنه سيدخل المطبخ، سأضعها له في المطبخ.

*****

خرجت جهاد من غرفتها متجهةً نحو المطبخ، لكنها اِلْتقت صدفةً برقية فشعرت بالارتباك، نظرت رقية إلى الرسالة في يد جهاد وسألتها قائلةً:

- ما هذه؟

أهي ليوسف؟

خفضت جهاد رأسها خجلًا وأجابتها بتلعثم:

- لا.. إنها ليست بالشيء المهم

فابتسمت رقية وقالت لها :

- إذا أردتِ يمكنك وضعها هنا، وسأعمل على أن يراها فور وصوله.

فنظرت إليها جهاد بتعجب، فضحكت رقية وقالت لها:

- ماذا؟

ألا تثقين بي؟

سيراها صدقيني!

أعدك بأنني لن أفتحها، ضعيها على طاولة المطبخ واتركي الأمر لي.

فابتسمت جهاد وقالت لها:

- أشكرك!

ثم وضعت الرسالة على الطاولة، وعادت إلى غرفتها.

في تلك الليلة لم يعرف النوم إليّ سبيلًا، كنت أشعر بالقلق على جهاد، وكم شعرت بالندم لما أسديته لها من نصح:

- أنا واثقة بأنه يحبك!

يا له من قول غبي تفوهت به!

وما أدراني أنا بحقيقة مشاعر يوسف نحو جهاد؟

ربما هو لم يعد يهتم لأمرها بالفعل!

ما الذي دفعني لأن أزرع فيها أملًا ربما يكون كاذبًا ؟

ما الذي جعلني أهدي صديقتي العزيزة السراب؟

ربما كان عليّ أن أنصحها بتركه وأن أعينها على ذلك لا أن أعيدها إلى وكره!

هل أخطأت بذلك يا ترى؟

أذكر أنني سمعت خالتي تقول لأمي عن أبي نفس القول الذي قلته لجهاد، وأذكر أنني كرهت خالتي لما قالته، كنت أشعر أنها كاذبة وأنه ما كان عليها قول ذلك، لكنني الآن أعرف تمامًا لما قالت خالتي ما قالته لأمي رغم أنها كانت واثقة من أن أبي لا يحبها؛ ببساطة لأنه في مثل هذا المقام لا يسعنا سوى أن نقول مثل هذا القول..

عزيزتي جهاد..أرجو أن تسير أمورك على ما يرام.

(8)

ظلت جهاد تنتظر حضور يوسف بصبر نافد، كانت تنظر إلى الساعة فتشعر كما لو أن عقاربها لا تتحرك، وظلت تنتظر.. وتنتظر..حتى أيست من قدوم يوسف إلى غرفتها، فبدلت ملابسها وأطفأت الأنوار ثم أوت إلى فراشها بحزن شديد، أخذت جهاد تبكي بكاءً مريرًا، لكنها توقفت عن البكاء فجأة عندما سمعت صوت الباب يُفتح، فاعتدلت جالسة في فراشها وعلى وجهها بقايا الدمع، ثم أُشعلت الأنوار فآذى الضوء عينيها فأسرعت بإغماضها، سمعت صوت الباب يغلقك، فحاولت فتح جفنيها بثقل شديد، وعندما اعتادت عيناها على الضوء كان يوسف واقفًا أمامها مبتسمًا ممسكًا بالرسالة في يده اليمنى.

تحسنت الأمور بين جهاد ويوسف، وعادة البسمة والبهجة إلى حياتها من جديد، ورغم أن زيارتها لمنزلي قد قلت عن ذي قبل لكنني كنت سعيدة لسعادتها، ففي الأيام القليلة التي كانت تزورني فيها كنت أراها متجددة في كل مرة، أصبحت ترتدي الملابس زاهية اللون وتضع مساحيق التجميل على وجهها، وعندما كانت تجالسني لم تكن تكف عن الحديث عن يوسف وما يقوله يوسف وما يفعله يوسف، كان الأمر مزعجًا بعض الشيء لكنني كنت أستمع إليها باهتمام مصطنع؛ فقد كنت أعرف أنها لا تجد غيري لتبوح له بمكنونات قلبها.

لم تكن السعادة هي الشيء الوحيد الذي استعادته جهاد، فرغبتها في الإنجاب تجددت بعدما كانت قد استسلمت، اشتدت همتها للبحث عن العلاج، فما بين عيادات الأطباء وبين دكاكين العطارين وكتب الطب البديل كانت جهاد تسعى سعيًا حثيثًا دون كلل أو ملل، كنت لا أكون سعيدة بهذا لو أن جهاد لم تكن تفكر في الإنجاب كوسيلة لإرضاء زوجها يوسف؛ فالفترة التي هجرها فيها يوسف جعلتها تعيش في رعب من أن يهجرها مرة أخرى، كانت خائفة من أن تُترك وحدها في الليالي الباردة بلا أنيس..أن يخرج يوسف من غرفتها يومًا ولا يعود إليها أبدًا..كانت تعجز عن البوح بمخاوفها لكنها كانت تبدو جلية في عينيها كلما تحدثت عن يوسف وعن الإنجاب.

يا له من شعور كريهٍ وقاسٍ أن تقف أمام مخاوفك عاجزًا عن التصدي لها!

ولكن الشعور الأشد قسوة منه هو العجز عن انتشال عزيز لك من رمال الخوف التي لا تفتأ تبتلعه رويدًا رويدًا حتى تغطيه تمامًا، فيزداد رعبه كلما ضاقت أنفاسه، و يضيق تنفسك كلما شعرت بشعوره، هكذا كان الشعور الذي اختبرته عندما جاءت إلي جهاد في ذلك اليوم بأكية مكفهرة الوجه منفعلة، ففي عصر ذلك اليوم طُرق باب منزلي طرقًا عنيفًا، فشعرت بالذعر وتوجهت مسرعة نحو الباب لأرى من الطارق.

نظرت من العين السحرية للباب فإذا هي جهاد!

فما إن فتحت لها الباب حتى ارتمت في حضني باكية وهي تقول:

- إنها حامل يا حنان، إنها حامل

لقد راعني أن أراها بهذا الحال، وبصعوبة بالغة استطاعت أن أُدخلها إلى منزلي وأجلسها، أسرعت بإحضار كوب ماء وقدمته لها، فأمسكتْ به ويداها ترتعشان وشربت منه القليل، جلستُ إلى جانبها بصمت حتى هدأت قليلًا، وفجأة كسرت جمود حاجز الصمت وقالت:

- منذ قليل.. اصطحب يوسف رقية إلى طبيبة نسائية.
هل تعرفين ما يعنيه هذا؟

فأومأت لها بالنفي، فقالت لي:

- هذا يعني.. أن رقية حاملًا

فأجبتها باندهاش:

- لا.. هذا مستحيل

فنظرت إلي وسألتني قائلة:

- ولما لا؟

فأجبتها ببعض الارتباك:

- لا شيء.. ولكن..أقصد أنني لم ألحظ عليها علامة تدل على ذلك، رأيتها بالأمس وقد كانت على ما يرام

فسألتني قائلة:

- إذًا فلماذا اصطحبها يوسف إلى الطبيبة النسائية؟

فأجبتها:

- لا أعرف، ربما هي تعاني علةً ما، ليس بالضرورة أنها حامل.
ربما تبحث عن علاج لعلة أصابتها؟

فسكتت جمادقليلًا ثم قالت بانفعال متنامٍ:

- هل يعقل أنهما يبحثان عن وسيلة للإنجاب؟
ولكن لماذا اصطحبها هي وحدها؟
لماذا لم يصطحبني أنا أيضًا للطبيب؟
هل يأس من أنني قد أنجب له يومًا؟!...

فقاطعتها قائلة:

- أرجوك يا جماد.. توقفي عن التفكير بهذه الطريقة.
لماذا تقولين مثل هذا الكلام؟!

لكنها عادت تبكي وتقول كأنها لم تسمع ما قلته لها:

- يا إلهي!
ماذا سأفعل؟
الأمر ليس بيدي إنها مشيئة الله ألاّ أُنجب، لماذا يعاقبني يوسف على أمر ليس بيدي؟
أنا واثقة أنه سيهجرني مثلما فعل من قبل، بمجرد أن تنجب رقية طفلًا له سوف يتركني إلى الأبد.

فقلت لها محاولةً تهدئتها:

- لا يا عزيزتي، لن يهجرك، لقد استطعت أن تستعيديه عندما ذكرته باللحظات الجميلة التي عشتماها سويًا

فقالت:

- هذا ليس صحيحًا.. رسالة تافهة كتلك لم تكن سببًا في عودة يوسف إليّ.

صدمني ما قالته جماد وآلمني أن تقول لي مثل هذا الكلام خاصة أن فكرة الرسالة كانت فكرتي.

فسألتها بتعجب:

- لماذا تقولين كلامًا كهذا!

فصمتت قليلًا ثم قالت لي:

- يوسف عاد إليّ لأن رقية أشفقت عليّ وأقنعته بزيارة غرفتي، فهي على أي حال ما كانت لتستطيع إرضاءه في تلك الليلة بالذات، ألم أخبرك ؟!

بعد ثلاث ليالٍ من تلك الليلة وجدت الرسالة التي تركتها ليوسف ملقاة في سلة المهملات.

فقلت لها:

- ربما ألقتها رقية!

فابتسمت وقالت لي:

- لا.. لم تكن رقية من ألقى بتلك الرسالة في سلة المهملات، بل كان يوسف.. أنا أعرف زوجي جيدًا يا حنان، وأعرف أنه لم يعد يهمه وجودي بقربه، إنه يحب رقية من كل قلبه، أنا أعرف ذلك وأعيه جيدًا لكنني تجاهلت الكثير من الأمور فقط لأنني أسعد بقربه.. هو لا يزور غرفتي إلا في تلك الليالي التي يتعذر فيها على رقية إرضاءه، لكنني مكتفية بذلك.. ولا يتفقدني إذا ما أطلت الغياب عن ناظريه؛ لكني لا أغيب عنه طويلًا حتى أقنع نفسي بأنه لا يسأل عني لأنني إلى جواره دومًا.. وأعلم أنه لا يرى زينتي ولا يلتفت إلى ما أرتديه، لكنني أظل أسأله عن رأيه وأتظاهر بالسعادة الغامرة عندما يجيبني مجاملاً: "تبدين جميلة"،

ولكن الإنجاب ؟

ماذا أستطيع أن أفعل بهذا الشأن ؟

لن أستطيع إرضاء أبوته أبدًا، لكن رقية ...

فقلت لها مقاطعة:

- ...لن تنجب له أبدًا هي الأخرى.

صدمت جهاد لما قلته ونظرت إلي باغتياظ وقالت:

- كيف أمكنك أن تقولي كلامًا كهذا يا حنان ؟

أتظنينني سأكون سعيدة لحرمان زوجي من أبوته ؟!..

ما أقصاك!!

فقلت لها:

- لا يا جهاد أنا لا أتمنى أمرًا كهذا لا ليوسف ولا لرقية ولا لأي شخص في العالم، و لكن الحقيقة هي ....، أنت لا تعرفين شيئًا يا جهاد.. لا تعرفين شيئًا

ِالتفتت إليها فالْتقت نظرتها بنظرتي، كان في عينيها بريق تلك البراءة التي كنت أستشف من خلالها قلب جهاد الطيب، فجمدتني تلك النظرة وشعرت كما لو أن خدرًا أصاب لساني، فسألتني بتعجب ممزوج بانفعالها وكأن قلبها كان ينبئها أن الآتي أعظم وقالت:

- لما صمتك!.. قولي..

فقلت لها:

- هل تذكرين تلك الليلة التي أمضيناها سويًا نرتب الأوراق التي كانت داخل الصناديق؟

فأجابتني بسؤال قائلة:

- وما شأن هذا بالموضوع؟

كانت نظرتها لا تزال معانقة نظرتي فلم أقوَ على الرد، لكنني تمالكت نفسي وأغمضت عيني وأكملت:

- لسبب لا أعرفه.. سولت لي نفسي أن.. أستعير منك بعض الأوراق

فقالت لي بتعجب:

- أي أوراق؟
حنان، عن ماذا تتكلمين؟
ما شأن كل هذا بما أنا فيه الآن؟

فتجاهلت سؤالها وقلت لها وأنا لا أزال مغمضة عيني:

- هل تذكرين أنني سألتك عن ملف تحاليل يوسف مرتين؟
لقد ظننتني قد نسيت أنني سألتك عنه، لكني لم أنسَ.. هل تعرفين لما سألتك عنه مرتين؟

لكنها لم تجب على سؤالي.

فأردفت:

- لأن تلك الأوراق كانت مكررة.. عرفت ذلك لأنني استعرت الأوراق التي سألتك عنها في المرة الأولى.

انتفضت جهاد من مكانها واعتدلت واقفة وهي تصرخ قائلة:

- ماذا؟!!

فنهضت من فوري وحاولت أن أبرر لها فعلتي ولكن لم يكن هناك من مبرر فقلت لها:

- أنا آسفة يا جهاد، أعرف أنه ما كان ينبغي لي فعل ذلك، لا أعرف ما الذي دفعني لأخذ تلك الأوراق، ولكن هذا لا يهم، المهم ...

فقاطعتني وصرخت في وجهي قائلة:

- لا يهم؟!
تقولين لا يهم؟!
لقد وثقت بك يا حنان، أطلعتك على أسرار لم يطلع عليها غيرك، كيف أمكنك أن تقومي بفعلة كهذه؟!

فسألتها متجاهلة ما قالته:

- لماذا أخفى عنك يوسف الحقيقة؟
لماذا كذب عليك؟
لمَ لم يخبرك بأنه أعاد إجراء الفحوصات؟

فأجابتني بغضب:

- هذا أمر لا يعنيك، إياك والتدخل في أمور لا تعنيك، منذ هذه اللحظة أريدك أن لا تتدخلي في مشاكلي.

ثم استدارت متجهةً نحو الباب، حاولت أن أوقفها بشتى الطرق لكنني لم أنجح حتى قلت لها:

-لقد عرضت التحاليل على طبيب متخصص.

فوقفت والْتفتت إليّ ببطء ونظرت إلي بدهشة ثم قالت:

- وعرضتها على الطبيب أيضًا؟!

ثم قامت باللحاق بي صارخة وأنا أركض أمامها:

- عرضت فحوصات زوجي على الطبيب؟؟
عرضت فحوصات زوجي على الطبيب؟؟

شعرت بالهلع من ردفعل جهاد، فأنا لم أرها قط غاضبة لهذه الدرجة، فقلت لها وأنا لا أزال أركض أمامها:

- يوسف لا يستطيع الإنجاب، هو الذي يعاني المشكلة

فتوقفت عن اللحاق بي وصرخت قائلة:

- توقفي!
توقفي عن قول هذا الكلام يا حنان.

فتوقفت والْتفتت إليها ولم أزد حرفًا واحدًا، فاستدارت جهاد واتجهت صوب الباب ولم أوقفها، ثم سمعت صوت الباب يُغلق فعرفت أنها خرجت من بيتي، جلست في مكاني وأنا أشعر بالندم.

لا أعرف هل كان عليّ أن أظل صامتة وأن أكتم هذا السر إلى الأبد؟

هل أخطأت لأنني أخبرتها؟

ماذا أفعل الآن؟

وفجأة سمعت صوت جرس الباب، فهرعت نحو الباب وفتحته فإذا بجهاد تقف أمام الباب، نظرت إليها ولم أنبس بحرف.

وبعد لحظات سألتني قائلة وفي عينيها نظرة إشفاق:

- هل هو مريض حقًا؟
أعني يوسف.. هل هو مريض بالفعل؟

شعرت بالغضب لإشفاقها عليه فأغلقت الباب في وجهها دون أن أجيبها.

(9)

وكما أن لكل شيء بداية.. فلابد للبداية من نهاية.. لكن النهايات تختلف عن بعضها، ففي حين أنها قد تكون هادئة كما ذبول أوراق الشجر، أو كنهاية حياة رضيع تخرج روحه وهو يتثاءب دون بكاء و بلا ألم.. إلا أنها قد تأتي مرعبة مسببة ضجيجًا كما انفجار البراكين أو تصدع القشرة الأرضية.. وكيفما كانت النهاية فإنها مؤلمة قاسية دائمًا.. وكذلك جاءت النهاية لما بين يوسف وجهاد عندما ارتكب يوسف تلك الغلطة التي لم يفكر في عواقبهاقبلًا..

كم هي غريبة هذه الحياة!

تسير وفق نظام فريد، ولكن عندما يحلو لها اللهو فإن ما يضحكها يبكينا وما يسعدها يشقينا.. تعبث وتعبث حتى إذا ما فرغت منا عادت لتنفصل عنا وتسير حسب نظامها الفريد، فلا هي تعي كم يؤذينا عبثها، ولا نحن نفهم لمَ هي تقوم بفعل ذلك.. وعندما نعتاد على وتيرة الحياة الثابتة لا نتنبه لمقالبها.

*****

لذلك لم ينتبه يوسف لجهاد الواقفة على مقربة من غرفة المعيشة.. يا لها من قهوة مشؤومة.. ماء.. نار.. قليل من السكر.. تركت الماء ليغلي..

البن!

ما أزكى رائحته وما أقربه إلى النفوس!

يوسف يفضل القهوة المركزة لكن أدهم يحبها خفيفة..

ملعقة صغيرة؟!

لا بل ملعقة كبيرة ونصف الملعقة..

تُحركها.. تضعها على النار.. وتبعدها بسرعة.. هذا أكثر ما تمقته في القهوة.. إنها سريعة الغليان و ترتفع بسرعة كبيرة.. عليها أن تكون متنبهة..أخيرًا انتهت!

ليتني أشربها دون أن أكون مضطرة إلى صنعها"

دائمًا تكرر نفس القول لكنها تظل تصنعها دون أن تشربها.. بطريقتها المرتبة وضعت الفناجين على "الصينية" بجانبها كوب من الماء متوسط البرودة وطبق صغير عليه أنواع من المكسرات.. هكذا كان يوسف يحب أن

تكون القهوة.. تمسك بالصينية وتحملها.. تمشي بخطواتها الهادئة الرزينة وعلى وجهها تلك الابتسامة الرقيقة حتى تصل إلى الردهة بالقرب من غرفة المعيشة.. لكنها تتجمد فجأة ويصيبها الذهول وتتسمر في مكانها.. وكأن لم يبق منها غير أذن تسمع.. فلا عين ترى.. ولا لسان ينطق.. ولا رجل تمشي.. ولا يد تبطش.

- لا.. ليس لأجل الأطفال.. الحقيقة!

ليس الإنجاب هو السبب وراء زواجي من رقية.

كانت هذه الكلمات حممًا ناريةً صبها يوسف داخل أذنيّ جهاد دون أن يدري.. ولشد ألمها لم تقوَ على الصراخ ولا وجدت دموعها سبيلًا لتسيل من مقلتيها، لا أدري لماذا ظلت جهاد صامتة.. ولا تدري هي لمَ ظلت واقفة هناك تستمع إليه وهو يبوح لصديقه أدهم قائلًا:

- اسمعني يا صديقي!

أنت رجل مثلي وتفهم مشاعر الرجال،

تلك الفتاة.. رقية.. إنها رائعة!

إنها طيبة ولطيفة ورقيقة ومفعمة بالأنوثة!

علاوة على ذلك فهي جميلة وفي ريعان شبابها..أنت تفهمني، أليس كذلك يا صديقي؟!

فأجابه أدهم:

- أعذرني يا صديقي!

ولكن في الحقيقة أنا لا أفهمك أبدًا..

ما تقوله غير منطقي، فإن كانت هذه الصفات هي ما تحبها في رقية فهي نفس الصفات التي تمتاز بها جهاد، صحيح أن رقية أصغر سنًّا من جهاد، لكن جهاد ليست عجوزًا أيضًا، فهي لا تزال تبدو شابة رغم تقدم عمرها، أليس كذلك؟

فتنهد يوسف وتململ قليلًا ثم قال بعد لحظة صمت:

- أنت على حق.. ولكنني.. أحبها يا رجل!

فسأله أدهم بدهشة:

- تحبها؟!

أنت تعني جهاد، أليس كذلك؟

رد يوسف بسرعة:

- لا لا، بل أقصد رقية..

ثم أردف:

- جهاد.. إنها طيبة القلب وهي تحبني، وقد قاست معي الكثير من الصعاب واحتملت مني الكثير من الحماقات، أعترف بأنني لم أكن الزوج المثالي لها، لكنها هي أيضًا لم تكن الزوجة الملائمة لي.. لا تنسَ أن أمي هي التي اخترتها لي وأنني تزوجتها دون أي عاطفة تجمع بيني وبينها.

فهز أدهم رأسه يمنة ويسرة معارضًا قول يوسف وقال:

- لا يا صديقي!!

أنتَ من طلب إلى أمك أن تختار لك فتاة تتزوج بها، ولم يجبرك أحد على الزواج بامرأة لا تحبها

أجابه يوسف بسرعة:

- أخطأت!..

كنت مندفعًا ولم أكن أعرف أن هذه الزيجة ستكون خطأ أسعى لتصحيحه وأنا في مثل هذا العمر.

*****

في تلك اللحظة..أيقنت جهاد أنه لا جدوى من محاولاتها، وأن كل ما حاولته وما ستحاوله لاستعادة مكانتها في قلب زوجها ما هو إلا رماد تحمله ريح حب رقية التي عصفت بقلب يوسف على حين غرة من جهاد.. ورغم ذلك إلا أن هناك أمرًا دفع جهاد لرسم ابتسامة عريضة على شفتيها.. فهي لم تقدم القهوة بعد.. القهوة التي فقدت شيئًا من حرارتها لكنها لا تزال تحتفظ ببعض الدفء بدرجة تجعل مذاقها لطيفًا:

- ها قد جاءت القهوة.. تفضلا!

قدمت القهوة.. تناول كلٌ من الرجلين فنجانه وارتشفا منه رشفة.. قطب يوسف جبينه بينما نظر إليها أدهم بدهشة:

- هذه القهوة باردة

قالها يوسف، فردت جهاد:

- أنا آسفة إنه خطئي.. سأعد لكما واحدة غيرها

وضع يوسف فنجانه على الطاولة، لكن أدهم ظل يشربها وقال وفي عينيه نظرة أسف:

- لا بل هو خطئي..ما كان علي أن أسأل عن...

سكت قليلاً ثم **أردف:**

- ما كان علي أن أسألك صنع القهوة.. سامحيني أرجوك.. سأشرب هذا الفنجان كما هو

فهمت جهاد ما رمى إليه أدهم وأجابته:

- لا عليك.. ربما هذا أفضل!

*****

مرّ يوم.. ويومان.. ثم انقضت ثلاثة أيام تجر خلفها يومًا رابعًا..وهكذا حتى انقضى أسبوعًا كاملًا ليعود الزمن متشابهًا وغير متشابه.. ومازالت جهاد مسلوبة الفؤاد لا تفتأ تفكر فيما قاله يوسف لأدهم.

لكنها لم تكن تعرف حقًا ما الذي تشعر به؟

أهي حزينة أم غاضبة أم ماذا بالضبط؟

فركنت إلى الهدوء والاسترخاء، وأفرغت ذهنها من كل ما يشغله، ثم أخذت تغوص في أعمق أعماقها، وتبحث عن حقيقة مشاعرها، وصلت إلى عمقها الإنساني الذي لم تعرفه من قبل، واستقرت هناك لبعض الوقت، حتى اكتشفت أنها..

لا ... هي ليست واثقة.. حقًا؟!

لا بل هي واثقة كل الثقة..

أخيرًا تيقنت من حقيقة مشاعرها..

أخيرًا اكتشفت أنها.. لم تعد تحب يوسف!!

متى تغيرت مشاعرها نحوه؟!

منذ متى توقفت عن حبه؟!

إنها لا تعلم.. ولا يهمها أن تعلم..المهم أنها أصبحت حرة!

أخيرًا تحررت جهاد من ذاتها!

أخيرًا تحررت من سيطرت مشاعرها عليها!

الأن هي سيدة الموقف..

الأن هي من صانعة القرار..

والأن هي صاحبة الكلمة الأخيرة.

*****

إنها العطلة الأسبوعية، وكالعادة جهاد وحدها في المنزل وأنا برفقتها، ويوسف يلهو مع زوجته رقية ويتنقلان في أنحاء المدينة بين المطاعم والأسواق والمنتزهات، بينما أظل وجهاد تسلي إحدانا الأخرى ما بين لعبة نلعبها أو حديث نتجاذب أطرافه، ولكن هذه المرة لم تكن كسابقاتها، فجهاد اليوم لم تنبس بحرف، أرى على وجهها علامات الارتياح لكنها لا ترغب بالتكلم، طلبت إليّ أن أساعدها في بعض أعمالها فوافقت، ورغم إلحاح الفضول عليّ إلا أنني عجزت عن سؤالها الْتزمت الصمت.

وبعد عدة ساعات عاد يوسف ممسكًا بيد رقية، كانت ضحكاتها السعيدة تزلزل أركان البيت، وكنت وجهاد جالستان في غرفتها، هي تنتظر وأنا أترقب بحذر، رأى يوسف ورقية بعض الحقائب والصناديق المرصوفة في مجموعتين فتعجبا لذلك، فنظرت رقية إلى يوسف وسألته قائلة:

- عزيزي، لمن هذه الحقائب والصناديق؟

فأجابها ضاحكًا:

- لا أدري، ربما تكون حملة النظافة السنوية لجهاد قد بدأت.

ضحكت رقية، خرجت جهاد عليهما من غرفتها وتبعتها، فنظر يوسف إلينا وسلم عليّ ثم وجه الحديث لجهاد قائلًا بنبرة ممازح:

- هل تعتزمين الرحيل أم ماذا؟
ما كل هذه الحقائب والصناديق؟!

فلم تزد جهاد على ابتسامة مصطنعة ثم نظرت إليّ وقالت:

- حنان، أشكرك يا عزيزتي،
أرجوك! عودي إلى منزلك وانتظريني هناك، سأوافيك فيما بعد.

فأومأت لها برأسي -أي حسنًا- شعر يوسف بشيء غريب يجري من حوله فتوجس من هذا الشعور، فنظر إلى جهاد وسألها قائلًا:

- جهاد!
ماذا هناك؟

فابتسمت جهاد وقالت له:

- عزيزي، أريد التحدث إليك قليلًا، هلاّ أتيت معي إلى غرفتي لبعض الوقت؟

همّ يوسف بالدخول إلى الغرفة التي خرجت جهاد منها، لكنها استوقفته قائلة:

- لا، أنا لا أقصد هذه الغرفة، بل أعني تلك الغرفة.

وأشارت بإصبعها نحو غرفتها القديمة التي صارت لرقية، فنظر إليها يوسف ورقية باندهاش وقال يوسف بشيء من الانفعال:

- ماذا تقصدين؟ ما الذي يجري هنا يا جهاد؟
تكلمي!

فلم تجبه جهاد وقالت موجهة كلامها لرقية:

- رقية عزيزتي!
أرجو أن تعذرينا، لن يطول انتظارك في الغرفة الأخرى، اسمحي لنا.

فابتسمت رقية ابتسامة مصطنعة ولم تقل شيئًا، ثم دخلت جهاد إلى حجرتها القديمة ولحق بها يوسف وهو يقول:

- جهاد!

أرجوك توقفي!

أخبريني ما الذي يحدث؟

دخلت جهاد إلى الغرفة يتبعها يوسف وهو يسألها:

- ما الذي يجري هنا يا جهاد

قالت جهاد:

- أرجو منك أن تغلق الباب.

أغلق يوسف الباب ثم التفت إليها قائلًا بصبر نافد:

- ها قد أغلقته، والآن تكلمي رجاءً.

لم تعرف جهاد من أين تبدأ، لكنها لم تكن لتتراجع أبدًا، فالتزمت الصمت للحظات ثم ابتسمت وسألته قائلة:

- هل تعرف كم تاريخ اليوم؟

فأجابها بتعجب:

- أظن أنه.. الخامس عشر من شهر ديسمبر

فقالت له:

- رائع!

هل تذكر ما المناسبة اليوم؟

فسكت قليلًا ثم أجابها:

- لا.. لا أذكر.. هل توجد مناسبة ما لهذا اليوم؟

فابتسمت وأطرقت رأسها لبرهة ثم أجابته وهي لا تزال مطرقة:

- لا.. لا شيء مهم!

ثم رفعت رأسها **وأردفت:**

- دعنا من كل هذا الكلام الذي لا جدوى منه..
ما أردت قوله هو..
أعني.. لقد عشنا معًا سنوات طوال وكنت سعيدة جدًا معك، حتى بعدما تزوجت برقية.. تغير الوضع؟ صحيح!
لكنك ظللت تحترمني وهذا الأمر لم تتغير فيه أبدًا.. أنا شاكره جدًا لتلك السنوات التي عشناها قبل دخول رقية إلى حياتنا، وأقدر لك تحملك لي منذ أن تزوجنا وحتى هذه اللحظة، لكننا الآن.. وصلنا لنهاية المطاف.

شعر يوسف كما لو أن صاعقةً أصابته، وظل ينظر إلى جهاد لوهلة دون أن ينطق بكلمة، ثم قال بصوت هادئ مشوب باستغراب:

- أنا لم أفهم شيئًا مما قلته، جهاد أرجوك!
هلاّ كنتِ أكثر وضوحًا؟
ما الذي تقصدينه بأننا وصلنا لنهاية المطاف؟

فأجابته قائلة:

- أقصد أننا يجب أن ننفصل؟

فصرخ يوسفقائلًا:

- ماذا؟!
هل جننتِ يا جهاد؟
ما هذا الكلام الذي تقولينه؟

فأجابته بنبرةٍ قويةٍ وحاسمة:

- أقول ما سمعت، حياتنا الزوجية انتهت منذ سنوات، لم يعد هناك ما يجمعنا، حياتك الآن أصبحت مع رقية.

فقال لها وهو يضحك بسخرية:

- رقية؟

تقولين حياتي مع رقية ها؟!

إنها الغيرة إذاً!!

تريدين أن تنفصلي عني لأنك تشعرين بالغيرة من رقية،

أليس كذلك؟!

هيا! اعترفي بالحقيقة!

أغاظ يوسف جماد بكلامه فصرخت في وجهه قائلة:

- الحقيقة؟!

الحقيقة؟!

الحقيقة هي أنني لم أعد زوجتك منذ وقت طويل يا يوسف، أتفهم ما أعنيه؟!

لقد أهملتني ونسيتني تمامًا، لقد أصبحت خادمة في بيتي، متى كانت أخر مرة قلت لي فيها أنك تحبني؟

أتذكر أخر هدية اشتريتها لي؟

اليوم..إنها ذكرى زواجنا، أنت لم تعد تذكر تاريخ زواجنا، منذ تزوجت برقية وأنا أحتفل بهذه الذكرى وحدي، أنا لم أعد جزءًا من حياتك منذ وقت طويل يا يوسف.

فرد عليها ساخرًا وقال:

- أهذا ما في الأمر؟

هدايا و ذكرى زواج؟!!

يا للسخف!!

هذه أشياء تافهة يفترض أن لا تلقي لها بالًا، ثم إني أشتري لك ما اشتريه لرقية أم أنك نسيتِ ذلك؟

فأجبته:

- لا لم أنسَ ذلك، و لكن أن تشتري لي شيئًا لتعدل بيني وبين رقية أو لأنني أحتاج إليه يختلف عما تهديه لي، فالواجب شيء و العطاء شيء آخر.

اعترف يايوسف!

أنت تحب رقية أكثر مني،

أليس كذلك ؟

سكت يوسف قليلًا ثم أجابها بصوت هادئ:

- لا .. أنا لا أحبها أكثر منك..
أنا أحبها هي فقط.. أحب رقية ولا أحب امرأة غيرها.

كانت هذه الكلمات طعنةٌ سددها يوسف إلى قلب جهاد، لم يكن يوسف يعرف أنه ما يزال في قلبها له بقايا حب قديم.. لكن ما قاله يوسف لها غسل قلبها من كل شعور كانت تكنه له.. ولكن شيئًا في داخلها ألحّ عليها لتسأله بصوت مختنق:

- ولا حتى أنا ؟!

فأجابها:

- حتى أنتِ يا جهاد.. ولكن هذا لا يعني أنه لا مكانة لك في قلبي، فأنت زوجتي العزيزة.. سامحيني ولكن هذا الأمر ليس بيدي.

استدارت جهاد موليةٌ إياه ظهرها في محاولة لإخفاء حزنها وألمها وقالت:

- هذا لا يكفيني يا يوسف.. أنا أعطيتك كل حياتي وزهرة شبابي، وقفت معك في أشد لحظات حياتك حلكةً وسوادًا ولم أخذلك يومًا، أحببتك دومًا بصدق وبإخلاص.. والآن أرفض أن أقضي حياتي مع شخص لا يكنّ لي المشاعر التي أكنّها له.

اشتاط يوسف غيظًا وقال لها:

- كفي عن هذا الكلام يا امرأة!!
هل تظنين أن الطلاق لعبة ؟
تعقلي وارجعي إلى صوابك..
أعترف بأنني أهملتك قليلًا و ...

قاطعته جهاد بانفعال قائلة:

- قليلًا!

تقول أهملتني قليلًا!
ست سنوات من الهجر والجفاء وتقول أنك أهملتني قليلًا!
يا لك من أناني!
أرجوك يا يوسف!
أنا لم أعد أطيق العيش معك وأنت لا تهتم بالعيش معي، دعنا ننفصل وليبق لكل منا في الآخر القليل من الذكريات الجميلة.

تأفف يوسف ثم سألها ساخرًا:

- لنفترض أننا انفصلنا، أنا سأكمل حياتي مع المرأة التي أحبها..أما أنتِ.. ماذا ستفعلين؟
أخبريني ما الذي ستفعلينه في حياتك؟!

فأجابته جهاد بنبرة حدٍ:

- رغم أن هذا ليس من شأنك ولكني سأخبرك..
سوف أتزوج وأحاول إنجاب الأطفال

فصرخ يوسف في وجهها غاضبًا وقال:

- أمازلت مصرة على الإنجاب؟
لم تحملي وأنت صغيرة السن، هل تظنين أنك قد تحملين بعدما تقدم بك العمر؟
افهمي هذا الكلام جيدًا..
أنت لم.. ولن..تنجبي أبدًا يا جهاد.

شعرت جهاد بشيء في حلقها آلمها حتى البكاء، فصرخت في وجهه قائلة:

- كفّ عن هذا الكلام يا يوسف، أنت السبب في عدم إنجابي، أنا سليمة ولا أعاني أي مشكلة، بل المشكلة الحقيقية تكمن فيك أنت، أنا أعرف ذلك وأنت تعرفه أيضًا.

صُدم يوسف بما سمعه من جهاد وتقهقر خطوتين مبتعدًا عنها وهو يقول بصوت خافت:

- كيف عرفت بهذا الأمر؟
من الذي أطلعك عليه؟

رقية! أليس كذلك؟

صُعِقت جهاد لما عرفت بأن رقية على علم بالأمر وقالت:

- يا إلهي!!
حتى رقية تعرف بهذا الأمر؟!
إذن أنا آخر من يعلم!!
كيف أمكنك أن تفعل بي أمرًا بهذه الفظاعة يا يوسف؟
كيف أمكنك أن تكون أ نانًيا وقاسيًا معي لهذا الحد؟

أخذ يوسف يعتذر ويتوسل:

- أنا آسف يا جهاد، أرجوك سامحيني!!
كنت أخشى إن علمتِ بالأمر أن تتركيني ...

فقاطعته قائلة بحدة:

- كان من حقي أن أعرف وأن تترك لي حرية الاختيار، كنت لأختارك أنت لو أنك كنت صادقًا معي، ولكن ليس بعد الآن.. لم يعد هناك مفر من الطلاق..
اخرج من حياتي يا يوسف!

همت جهاد بالخروج من الغرفة لكن يوسف استوقفها قائلًا:

- جهاد أرجوك!
لقد قال الطبيب أن هناك أملًا، ربما نستطيع إنجاب الأطفال، صدقيني.

فالتفتت إليه وقالت مبتسمة:

- هذا جيد.. خبر رائع.. ستسعد رقية كثيرًا بهذا الخبر

ثم استدارت وفتحت باب الغرفة فانتهرها يوسف وزمجر قائلًا:

- جهاد!!
إن خرجت من هذا البيت لن تعودي إليه أبدًا.

فالتفتت إليه وقالت بهدوء:

- ماذا؟

أخرج من البيت؟

من قال لك أنني سأخرج من هذا البيت!!

الحقائب والصناديق المرصوفة في الردهة تحوي أغراضك أنتَ ورقية..

هذا البيت لي، وأنتما من سيخرج منه.

صدم يوسف حتى عجز عن الكلام وظل ينظر إلى جهادمدهوشًا، وفجأة دق جرس الباب فأسرعت رقية وفتحت الباب وإذا برجلين واقفان هناك فقال أحدهما:

- مساء الخير سيدتي.. نحن الحاملان

الشاحنة تقف عند بوابة المبنى، ما الذي تريدين منا نقله!

*****

أن تفقد السيطرة، أن تنسى الإتزان، أن تضيق بك الدنيا فتنسى كل ما تعرفه عن نفسك، لحظتها تصبح شخصًاأخر تمامًا، تشاهد كل ما يحدث لك بعين مشفقة، ترى كل شيء فيك يغادرك إلى الأبد وتقف ملوحًا له بعجز، تواجه البداية من جديد، تتعرف على أسوأ ما في شخصيتك الجديدة، تحارب وتضحي حتى تتكون من جديد، تبتسم في رضاء تام عن هذا الشخص الذي أصبحته.

يوسف

كم أسعدني أن أحضر زفاف جهاد! لقد كانت سعيدة جدًا في تلك الليلة، والرجل الذي تزوجته بدا لي طيبًا ومحبًا، لكن سعادتي تلك لا تساوي شيئًا مقارنة بالسعادة التي شعرت بها حينما جاءني نبأ حمل جهاد.

وكم تأثرت بدموع الفرح التي رأيتها في عينيها!

أذكر أنها وعدتني قبل سنوات بأنها سوف تطلق اسم حنان على ابنتها.

ولكن.. لا بأس.. فاسم عمر جميل وأنيق لطفل وُلد في هذا الزمان..

ما أكرمك يا ربي!

لقد جاء عمر استجابة من الله لنداء أمومة جهاد الناحبة الباكية، التي ظلت أيامًا ولياليٍ تصرخ دون صوت.. تبكي دون دموع.. تحترق حيث لا نار.. تغرق حيث لا ماء.. تختنق حيث لا مانع للهواء.. وتموت في أحضان بحيرة الخلود.

ولا تمت قبل أن تكون حياة

نبذة عن الكاتب

محمود عادل محمود عبدالتواب

مواليد القاهرة

19سنة

صُدر للكاتب مجموعة قصصية في معرض القاهرة الدولي للكتاب بعنوان حياة فانية، صادرة عن دار الكنزي للنشر والتوزيع..

للتواصل مع الكاتب عن طريق الفيسبوك

https://www.facebook.com/profile.php?id=100003818319654